الدرس الأربعون

تفسير سورة الإنسان: [٣: ٩]

{ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا (٣) إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا (٤) إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا (٥) عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا (٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (٧) وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا (٨) إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا (٩) }.

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى جعل هذه الحياة محل ابتلاء، كما قال سبحانه: {أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا*إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}

والشكور: هو الذي يقابل نعمة الله وهدايته بالاغتباط بها وقبولها والسير على نهجه وسبيله، والكفور هو الذي يتنكب الطريق ويستنكف ويستكبر. وإنما سمي الكافر كافرًا لأن الكفر هو التغطية، فكأنه غطّى قلبه وعقله بهذا الحجاب، حجاب الكبر والإباء والتكذيب فحال بين قلبه وبين نور الله، فلم يقبل هدى الله، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} [الشورى:٥٢]

ولما ذكر الله تعالى هذا التنوع نبّه على الجزاء، فقال: {إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا} هذا الجزاء الحاصل من الكفر كما سيذكر الجزاء الحاصل من الشكر، {إِنَّا أَعْتَدْنَا} أي هيّأنا وأعددنا، والسلاسل تكون في الأيدي وفي الأرجل،

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

والأغلال تكون في الأعناق {إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ*فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ} [غافر:٧١-٧٢]، وقال: {إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ} [يس: ٨]، فتغل أيديهم إلى أرجلهم إلى أعناقهم، فيقذفون في النار.

والآية تدل على أن النار مخلوقة؛ لأنه قال: {إِنَّا أَعْتَدْنَا}، وهو فعل ماضٍ، فالجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن؛ فقد قال عن الجنة: {أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [أل عمران:٣٣] وقال عن النار: {أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ} [البقرة:٢٤] خلافًا للمعتزلة، الذين ينفون ذلك ويزعمون أن هذا من العبث الذي لا حاجة له. وهذا مبني على فساد أصلهم إذ أنهم يحكمون على الله -تعالى الله عما يقولون- بوجوب فعل الأصلح، بمحض عقولهم، فيما ينبغي لله، وما يمتنع عنه، وما يجوز له، وهذا من الجرأة العظيمة على الله عز وجل، والواجب اعتقاد ما دلّت عليه النصوص.

{وَسَعِيرًا} والسعير هي النار الموقدة، وهو اسم من أسماء جهنم.

ولما ذكر حال هؤلاء ذكر حال مقابليهم، فقال: {إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا*عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} الأبرار جمع بَرّ، والبَرّ هو من يفعل الخير، فالبِرّ كثرة الخير، فسماهم الله تعالى أبرارًا، لأنهم بارّون في أعمالهم وأقوالهم، {يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ} وإذا قيل كأس في اللغة فالمراد به كأس الخمر. وهو خمر الجنة قال تعالى: {يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ (١٨) لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ} [الواقعة: ١٧ - ١٩]، أي لا

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

يلحقهم من آثاره ما يلحق من يشرب خمر الدنيا من الصداع والأذى وفقدان العقل كما قال: {لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ} [الصافات: ٤٧]، وقال: {لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ}، بل فيه اللذة، كما وصف في هذه الآية: {كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا} والعرب تعرف الكأس وتعرف الخمر وتعرف الكافور، لكن ليس في الجنة ممّا في الدنيا إلا الأسماء، الأسماء واحدة لكن الحقائق والكيفيات مختلفة، إلا أن ثَمّ اشتراك في أصل المعنى. ولهذا يذكر المفسرون أنّ الكافور فيه برودة، يناسب أن يكون مِزاجًا وخلطًا مع الكأس.

ثم قال: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا} ذهبَ المفسرون إلى أنّ هذه مرتبة أعلى من الأولى، وأنّ عباد الله هنا هم المقرّبون الذين في رتبة أعلى من الأبرار، فلئن كان الأبرار يشربون من كأس ممزوجة، فإنّ عباد الله المقربين يشربونها صِرفًا من العين مباشرة. وقد قال يشرب بها، ولم يقل يشرب منها، وهذا ما يسمى في علم البيان بالتضمين، يعني أن الفعل يُضمّن معنى فعل آخر، فكأنه ضمّن فعل (يشرب) فعل (يروى)؛ لأنه يروى بها أو يتروّى بها، فهم يشربون ويروَون أيضًا.

والإضافة في قوله: {عِبَادُ اللَّهِ}، إضافة تشريف أي أنّ عبوديتهم لله عبودية حقة، فليسوا مجرد عبيد عبودية كونية، فكل الخلق، ، عبدٌ لله {إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم:٩٣] مسلمهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، لكن المقصود هنا العبد العابد وليس العبد المعبّد.

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

قوله: {يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا}، يعني يذهبون بها ويصرفونها كيف شاؤوا، في مساكنهم وبساتينهم حيث شاؤوا، فكأنها طوعُ بنانهم.

ولما نبّه على هذا الجزاء ذكر المسوّغ الذي لأجله نالوا هذه الدرجات العُلى.

فقال:{يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} النذر إما أن يراد به مطلق ما أوجبه الله سبحانه وتعالى كقوله في مناسك الحج: {ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ} [الحج:٢٩] فثَم مناسك يجب أداؤها، فهي واجبة بأصل الشرع، وإما أن يراد بالنذر ما أوجبه الإنسان على نفسه من غير إيجاب من الله، كأنّ يقول إنسان: لله عليّ نذر أن أصوم شهرًا، أو يقول: لله عليّ نذر أن أحجّ بيته، أو يقول: لله عليّ نذر أن أذبح ناقة أو شاة، فإلزام الإنسان نفسه طاعة غير واجبة يسمى نذرًا، فَهُم على كلا الحاليـن، يوفون بالنذر، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَّ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ)[1]، وليس في هذا دليلٌ على مشروعية النذر، وإنما فيه دليل على وجوب الوفاء بالنذر إذا انعقد، ولا ينبغي للإنسان أن ينذر، ويضيق على نفسه بأن يلزمها بما لم يلزمها الله به فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أَنَّهُ نَهَى عَنِ النَّذْرِ، وَقَالَ: «إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ»)[2]، وصدقَ بأبي هو وأمي صلى الله عليه وسلم، فإنّ كثيرًا من الناس يُخيّل إليهم إذا أرادوا شيئًا من المطالب أن ذلك لا يتم لهم إلا بالنذر! فيقول لله عليّ نذر إن حصل كذا وكذا أن أذبح كذا وكذا، أو أن أتصدق بكذا، فإذا تحقق مطلوبه حاول جاهدًا

(١) أخرجه البخاري رقم (٦٦٩٦).

(٢) أخرجه البخاري رقم (٦٦٠٨)، ومسلم رقم (١٦٣٩).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أن يتنصل ممّا نذر، ويبحث عن مخرج، وهذا أمر مُشاَهد! تجد من نذر أن يتصدق مثلًا بألف ريال، إذا تحقق ما يرجوه أخذ يسأل، يصلح أن أوزعه على أولادي؟!

فينبغي للإنسان إذا أراد من اللهِ شيئًا أن يرفع يديه ويدعوه، فالله سبحانه وتعالى يعطي لا على سبيل المقايضة! هل تظن أيها الناذر أن الله سبحانه وتعالى لم يحقق طلبتك إلا لأنك نذرت؟ الله غني عنك وعن نذرك، لكن سله وادعه، فليس شيء أكرم على الله من الدعاء، وينبغي لطلبة العلم أن يحذّروا الناس من النذر، حتى لا يقعوا في عدم الوفاء به، فمن كان في سعة فلا يضيّق على نفسه واسعًا، ثم هو إن شاء، بعد أن يُحقق الله تعالى له ما يرجوه، له أن يشكر ربه بما شاء من أنواع الطاعات فهذا خير من أن يفعله على سبيل الالتزام.

قوله: {وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا} فالوفاء بالنذور من فعل الواجبات. والخوف من اليوم الآخر هو الذي حجزهم عن الوقوع المحرمات، ففعل الواجبات وترك المحرمات سببها خوفهم من اليوم الآخر. وهو يوم حقيق بالخوف لا شكّ، يوم القيامة يوم عظيم، يوم مهول، من امتلأ قلبه بالعلم بحقيقته وتفاصيله وما يجري فيه، نشأ عنده خشية وورع وخوف عند تذكره! ومعنى مستطيرًا أي: منتشرًا، ممتدًا، يملأ السماء والأرض، تُبدّل فيه الأرض غير الأرض والسماوات.

ثم ذكر أيضًا من صفاتهم {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}، قال بعض المفسرين: مرجع الضمير في قوله: {عَلَىٰ حُبِّهِ}؟ إلى الله، أي يطعمون الطعام على حب الله، أو بسبب محبة الله، ولكن الظاهر والله أعلم -وعليه أكثر المفسرين-

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

أن المراد على حب الطعام، يعني أنهم يحبون هذا الطعام، الذيهو جزء من مالهم ومقتنياتهم، ومع ذلك فإنهم يبذلونه ابتغاء وجه الله {مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا}، المسكين: فهو الذي لا يملك قوته، والمسكين إذا جاء منفردًا في القرآن فإنه بمعنى الفقير، والفقير إذا جاء منفردًا في القرآن فإنه بمعنى المسكين، أما إذا وردَا معًا فإن العطف يقتضي المغايرة، كما جمع بينهما في آية مصارف الزكاة {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ} [التوبة:٦٠] قال المفسرون: الفقير هو الذي لا يجد أكثر كفايته، أي دون النصف، والمسكين هو الذي يجد أكثرها، أي النصف فأكثر، فالفقير أشد فاقة من المسكين، وعند الإطلاق هما بمعنى واحد، كما في قول الله تعالى: {فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ} [المائدة:٨٩] وسمّي المسكين مسكينًا لأن الحاجة أسكنته، فتجد فيه خضوعًا وإخباتًا وسكينة، لأنه محتاج ومضطر.

قوله: {وَيَتِيمًا}، اليتيم: من مات أبوه ولم يبلغ، فالغالب أنه لا عائل له ولا منفق عليه، وقد عظّم الشارع العناية بهؤلاء الضعفاء، فقال الله تعالى: {فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ *وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ *فَكُّ رَقَبَةٍ *أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ *أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ} [البلد: ١١-١٦]، وفي هذا استجاشة لأصحاب النفوس الكريمة الطيبة أن يبذلوا ويعطوا ويطعموا، فإنّ من عباد الله من لا يجد ما يسد جوعته، وكثير من الناس يتفكّه بالكماليات ولا يشعر بحاجة الفقراء والمساكين والأيتام. فينبغي لأهل الإيمان أن يتفطّنوا لذوي الحاجات.

قوله: {وَأَسِيرًا}، الأسير: هو المحبوس، وقيل: الأسير هو العبد الرقيق، لأنه بحكم المحبوس على سيده، وقد عظّم النبي صلى الله عليه وسلم شأن ما ملكت الأيمان من الأرقاء والإماء، فكان من آخر وصاياه: (الصَّلاَةَ الصَّلاَةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ)[٣]، فهذه الأمور الخُلقية أمور مُقترنة بأصل الدين، وإذا ذهب الدين ضاعت هذه العاطفة الإنسانية، وفقد هذا الباعث الإيماني والله سبحانه وتعالى يذكر في صفات الكافرين ما ينافي الأخلاق؟ {أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ} [الماعون:١-٣] فالإيمان سبب للرأفة والشفقة والرحمة والبذل والعطاء، وفقد الإيمان سبب للقسوة والغلظة والإهمال وإهدار الحقوق.

وفي قوله {عَلَىٰ حُبِّهِ} معنى ينبغي التفطن له وهو إنّ العمل قد تكون صورته واحدة ولكن يتفاوت في ثوابه بحسب القرائن المحيطة، فقد جاء بالحديث (سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ» قَالُوا: وَكَيْفَ؟ قَالَ: «كَانَ لِرَجُلٍ دِرْهَمَانِ تَصَدَّقَ بِأَحَدِهِمَا، وَانْطَلَقَ رَجُلٌ إِلَى عُرْضِ مَالِهِ، فَأَخَذَ مِنْهُ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ فَتَصَدَّقَ بِهَا)[٤]، فإن رجلًا لا يملك إلا درهمًا فيتصدق به يفضل ورجلًا يملك آلاف الدراهم فيتصدق بألف درهم، وربما قارن الدرهم الواحد نية خالصة، وقارن الألف درهم مراءاة ومباهاة.

ولهذا قالَ بعدها: {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}، لم يقولوا هذا كفاحًا في وجوههم، وإنما يقولون ذلك في نفوسهم، كما قال عدد من

(٣) أخرجه أحمد رقم (٢٦٤٨٣).

(٤) أخرجه النسائي رقم (٢٥٢٧).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله

السلف، حتى لا يمتنّوا عليهم، فإن المنّ يبطل الصدقة {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ} [البقرة:٢٦٤]. بعض الناس إذا أعطى أخذ عند كل مناسبة يذكر بعطيته، ويمن بها، ويؤذي صاحبه ويذله، فهذا عمل مذموم يحبط عمله ويبطل صدقته. والواجب أن يكون كما وصف الله، {إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ} ابتغاء وجه الله {لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا} أي لا نريد عوضًا ولا نريد ثناءً. من الناس إذا أحسن لغيره وتصدق عليه، أخذ يستقضي به الحاجات، فيوجهه في مصالحه ويستقضي به حوائجه، كأنما هو يسترد ما بَذل له، ويتعجل ثوابه. فعلى العبد المؤمن أن يتفطن لهذا، فلا يستوفي أجره في الدنيا، بل يدخره خالصًا للآخرة، ولا ينتظر الثناء من الناس؛ ليقولوا فلان المحسن الكريم، أو يخدش نفسه ألا يذكروا مناقبه، فأمر الإخلاص مهمٌ جدًا. نسأل الله أن يطهر قلوبنا من النفاق وأعمالنا من الرياء وألسنتنا من الكذب، فإن الله طيّب لا يقبل إلا طيبًا! وقال في الحديث القدسي: (أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ)[٥].

(٥) أخرجه مسلم رقم (٢٩٨٥).

هذه المادة لم تراجع على الشيخ حفظه الله